أبي الخيزران

عبد المنعم الهاشمي

دار الإيمان
إسكندرية

obeikandl.com

محفوظة
جميع الحقوق

رقم الإيداع ٢٠٠٣/٣٢٣٤

الترقيم الدولي

977-331-971-1

دار الأمين للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع جليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

دار العلمية
١٩ شارع جليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail:dar-aleman@hotmail.com

obeikandl.com

بها عليـها، وطلاقةَ لـسان، وحُسْنَ حـديث، وعن الأخلاقِ وأدبِ النساءِ، فهي مهذبةٌ ساميةُ الأدبِ حسنهُ الخلقِ.

دوَّى اسمُ الخيزرانِ في جنباتِ القصرِ، قصرِ أمير المؤمنين المهدي دوياً هائلاً أزعجَ النساءَ وأدهش غـيرَها من الجواري، ولما تصـاعدت غيـرتُهن أطفأتْهَـا حظوةُ هذه الجاريةِ الحسناءِ عـند الأميرِ، فـما من حديثٍ يدور بين الأميرِ والجاريةِ إلا أخذَهُ دفءُ الكلمِ وانفراجُ الثغور على الوجوه، وما منْ رأى تطرحُه الجاريةُ الحسناء «الخيزران» إلاَّ وقد وجد آذانًا صاغيةً في أرجاء القصر ومن صاحب القصر.

لم يَدرْ بخلدِ النسـاءِ ولا الجـواري في يوم من الأيام أن ترتبطَ الخيزرانُ بـنتُ عطاء إحدى جواري المهدي، بأمـير المؤمنين ذاته، لم يكن هذا الأمـرُ في حساب إحـداهُنَّ، فكلَّ هذا في نظرِهُنَّ مـجرَّدُ ملاطفةٍ يلاطفُ بهـا أميرُ المؤمنين جاريةً من جـواريه تُحسن الحديثَ معه، وقد أرهقَها الرِّقُ وأذلَّها فاستدعت ألفاظَها الساحرة وابتساماتها المشرقةَ كي تُقلِّلَ من مذلَّةِ الرِّقِّ التي هي فيها، ولهُنَّ الحقُّ فيما ذهبْنَ إليه من ظنٍّ حولَ علاقةِ أمير المؤمنين بها.

الزواجُ المبارك:

مـا كانت الخـيـزران تحلم بشيءٍ سـوى هذا الحلم الذي تحـقَّقَ بمجيئهـا من سوق الرِّقِّ إلى قصر أمير المؤمنين فـهذا الأمرُ هو صرحُ أمانيها الغاليةِ الحالمةِ إلى أبعـد حدٍّ، ولكن أن تكونَ أميرةَ هذا القصرِ فإنَّها لم تتـصوَّر هذا الأمر أو مجرَّدَ التفكيـر فيه، فلم تكن تعلم أنَّ

المهدي غارقٌ في حبِّها إلى أُذنيه عاشقٌ لذكائها وفطنتها حتى إنَّه لم يعد يصبر على فراقها لحظةً واحدةً، ولكنَّها وجدت في نفسها شيئًا غيرَ الذي في نفوسِ غيرها من الجواري، فقد أحبت هذا الرَّجلَ وخافت بل خشيت أن تتجاوزَ حدودَها ومكانَها فينهار الحلمُ كلُّه ولربَّما تفقد حتى حياتَها إذا لم تحسبْ لكلِّ شيءٍ حسابًا.

وفجأةً استدعى المهدي الخيزران للقائها على عجلٍ، وما هي إلا لحظات حتى كانت الخيزران بنت عطاء أمام أمير المؤمنين المهدي، وقد أطرقتْ خجلاً وارتعدت خوفًا وقلقًا فهي لا تدري أى جُرمٍ ارتكبت حتى تُستدعى هذا الاستدعاءَ العاجلَ، ترى هل أحسَّ بما في نفسها من جهته وأراد أن يردَّها بعيدًا عن حظوتِه في مجاهل قصوره أَم اشتكتها زوجه الأُولى (ريطة بنت أبي العباس السفَّاح) أَم أن مكيدةً من مكائد النساء الجواري قد صُنعت لها لكي يُطاحَ بها من أمامهن وقد حجبتْ عنهن أمير المؤمن بحظوتها ومكانتها الأليفة التي جعلتها أثيرةً إلى نفسِه وقلبِه.

قطع هذه الأفكار السريعة، والتي مرَّت مرورَ البرقِ في لحظات، قطع كلَّ هذا صوتُ أمير المؤمنين مُرَحِّبًا بالخيزرانُ، دون أن يسبق اسمها بكلمة «يا جارية» . . فسرت في جسدها رعشةُ خوفٍ، **وأجابت:** نعم يا أميرَ المؤمنين.

فقال: لقد أعتقتك، فأنت الان حُرَّةٌ، ولا تنتسبين إلى الجواري.

أصابت الدهشةُ الخيزرانَ، بل قل شدَّةُ الفرح التي عقدت لسانَها

المهدي غارقٌ في حبِّها إلى أُذنيه عـاشقٌ لذكائها وفطنتها حتى إنَّه لم يعد يصبر على فـراقها لحظةً واحدةً، ولكنَّها وجدت في نفسِـها شيئًا غيـرَ الذي في نفوسِ غـيرها من الجـواري، فقد أحـبت هذا الرَّجلَ وخافت بل خـشيت أن تتجـاوزَ حدودَها ومكانَها فـينهار الحلمُ كلُّه ولربَّما تفقد حتى حياتَها إذا لم تحسبْ لكلِّ شيءٍ حسابًا.

وفجأةً استدعى المهدي الخيزران للقائها على عجلٍ، وما هي إلا لحظات حتى كـانت الخيزران بنت عـطاء أمام أميـر المؤمنين المهدي، وقد أطرقتْ خـجلاً وارتعـدت خوفًـا وقلقًا فـهي لا تدري أى جُرمٍ ارتكبت حتى تُستدعى هذا الاستدعـاءَ العاجلَ، ترى هل أحسَّ بما في نفسـها من جـهته وأراد أن يردَّها بعـيدًا عن حظوتِه في مـجاهل قصوره أم اشتكتها زوجـه الأُولى (ريطة بنت أبي العباس السفَّاح) أم أن مكيدةً من مكائد النساء الجواري قد صُنعت لها لكي يُطاحَ بها من أمامهن وقد حجبتْ عنهن أمير المؤمن بحظوتها ومكانتها الأليفة التي جعلتها أثيرةً إلى نفسِه وقلبِه.

قطع هذه الأفكار السريعة، والتي مرَّت مرورَ البرقِ في لحظات، قطع كلَّ هذا صوتُ أمـير المؤمنين مُرَحِّبًا بالخيـزرانُ، دون أن يسبق اسمـها بكلمـة «يا جارية» . . فـسرت في جسـدها رعشـةُ خوفٍ، وأجابت: نعم يا أميرَ المؤمنين.

فقال: لقد أعتقتك، فأنت الان حُرَّةٌ، ولا تنتسبين إلى الجواري.

أصابت الدهشةُ الخيزرانَ، بل قل شدَّةُ الفرح التي عقدت لسانَها

فلم تنطق بكلمةٍ ولم تجد لصوتِها مخرجًا تعبِّر به عن شكرها أو فرحها وانهمرت دموعُها على خديها من الفرحة في الوقت الذي اقتربت منها بعضُ الجواري مهنئاتٍ على ما أفاءَ الله عليها من نعمةِ الملك فهي الآن حرَّةٌ بعد أن كانت جاريةً، ولما شهقت باكيةً من الفرح كتمها صوتُ المهدي وهو يقول: ولقد رغبت الزواجَ منك يا خيزران..!! هزت الخيزرانُ رأسَها وهي لا تدري، بل كادت تنطق بالموافقة لولا حياؤها وسرى إلى مسامعها قول بعض الجواري كلمة «سيدتي الأميرة»، واستعدَّ القصر كلُّه لهذا الحدث العظيم والعرس الكبير، فانتشرت الزينة، وعمَّ الفرح جميع الأرجاء، وانتشر خبر زواج المهدي من الخيزران بنت عطاء العربية الحرَّة اليمانية الجرشية.

الزفاف الفريد:

كان زفاف الخيزران بنت عطاء للمهدي وأمير المؤمنين العباسي زفافًا فريدًا أُولِمت فيه ولائمُ العباسيين المعروفةُ بسخائها وكرمها فقد جمعت ما لذَّ وطاب من فاكهة الأمصار وخيرِ البلاد وحظيت الخيزران بمنزلة عاليةٍ عند زوجها المهدي، مما لفت إليها أنظارَ القصرِ، حتى إنَّ «ريطةَ بنتَ أبي العباس السفاح» ضرتها واشدَهُنَّ عداوةً لها ـ كانت تتقربُ إليها فتهديها بعضَ جواريها كيَّما تحظى بعطفِ المهدي لما تجده من ميل المهدي إليها وحُبِّه الشديد لها.

وأدرك الناسُ منزلةَ الخيزران ومكانتَها عند زوجها المهدي، فكانوا يقصدون دارَها وقصرَها لتتوسطَ لهم لدى المهدي لقضاءِ

حوائجِهم، وكـان المهدي يستجيبُ لطلبـها، لما لها من منزلةٍ عنده، وأصبح قصرُها قبلةَ الأنظارِ، ومقصدَ النَّاسِ ذوي الحاجات والفقراء.

وقد قدَّمهـا المهديُّ على جميع نسائِه، لأدبِها وجمـالها وذكائِها ولما لها في قلبـه من مكانةٍ عظيمةٍ سمت بهـا سموًا رفيعًـا في قصر المهدي. وزادت مكانـةُ الخيزران عند المهـديِّ عندما ولدت خليـفتين هما الهادي والرشيد (هارون الرشيد).

وقد ذكرالمؤرخون[1] أنَّه لم تلد امرأةٌ خليفتيْن غيرُ ثلاثِ نسوة، هُنَّ:

الأولى ـ ولاَّدة بنت العبـاس العبـسية؛ تزوَّجـها عـبد الملك بن مروان، فـولدت له الوليد بن عـبد الملك، وسليـمان بن عـبد الملك وكلاهما وُلِّي الخلافة بعد أبيه.

الثانية ـ شانهر بنت فيروز بن يزدجـرد، تزوَّجها الوليد بن عبد الملك فولدت له ولدين وكلاهما وُلِّي الخلافة.

الثالثة ـ هي الخيزران بنت عطاء، ولدت للمـهدي ولدين هما موسي الهادي، وهارون الرشيد، وكلاهما تولَّى الخلافة[2].

وقد انجـبت الخيـزرانُ ابنها مـوسي الهادي (عـام ١٤٤) وتولَّى العهدَ وعمره (١٦ عامًـا)، وانجبت ابنها هارون لثلاث بقين من شهر ذي الحجة (عام ١٤٥هـ).

---

(١) «البداية والنهاية» (جـ١، ص١٦٣).

(٢) «شزرات الذهب» (جـ٢).

وقد استطاعت الخيزران بنت عَطاء أن تبني علاقات قوية بينها وبين نساء الأمراءِ والوزراءِ، فكانت تربطها بهن روابطُ متينةٌ قويَّةٌ ولعل ثمارَ هذه العلاقاتِ اثمرت ثماراً حقيقيَّة طيِّبةً.

ومن هذه الأُسر التي صادقتها الخيزران الأُسرة البرمكيَّة، أُسرة يحي بن خالد البرمكي، حيث أن نساءَ يحي البرمكي قد تمكنَّ من التسللِ إلى قلبِها، فَحَظَيْنَ عندها حظوةً كبيرةً، فهُنَّ يجالسنها كثيراً ويسامرنها عن كل شيء يشغل شاغلها.

وأصبحت الأُسرةُ البرمكيَّةُ، أُسرةُ يحيى بن خالد البرمكي قريبةً إلى قلبِ الخيزرانِ بنت عطاء أمّ هارون الرشيدِ، بل ومحل ثقتها وحبِّها الدافئ الشديد، واختصت الخيزرانُ فاطمةَ بنتَ محمد بن الحسنِ أمّ جعفر البرمكي، صديقةَ مقربةً إلى نفسها وبالتالي إلى أسرتِها كلِّها بما فيهم المهدي.

ووصل الأمر بالخيزران أن دفعت ابنها هارون إلى فاطمة أمِّ جعفرَ البرمكيِّ لكي تُرضِعَهُ وبهذا أصبحتُ فاطمةُ أمُّ جعفرَ بمثابة الأُمِّ لهارونَ الرشيد ويحيى البرمكي بمثابةِ أبٍ للرشيد في الرضاعة، وأصبح أبناء يحيى بن خالد البرمكي بمثابةِ أخوةٍ لهارونَ الرشيد في الرضاعة.

مع المهدي:

استحوذت الخيزرانُ جاريةُ القصر وعتيقةُ المهدي، والعربيَّةُ الأصل على قلب المهدي، فقد استعذبتْ طعمَ الملكِ والحريةِ وملك النفسِ بعد أن عانت من مذلةِ الرِّقِّ والاستعبادِ، فاظهرت شخصيةً قويةً، وكان لشخصيتها القويَّةِ سببٌ في ذيوع شهرتِها واهتمام أهل عصرِها وزمانِها بها.

ولعل أكثر الناسِ تأثرًا بشخصيتها القويَّةَ هو زوجُها المهدي أميرُ المؤمنين العباسي، فقد أعجبَ بها إعجابًا شديدًا وأحبَّها إلى درجةِ العشق، حتى إنَّه كان إذا غابتْ لا يقدر على فراقِها وبثَّها أشواقَه العظيمةَ الحارَّةَ، بل ونَظَمَ شعرًا فيها. حتى إنَّه لما خرجت إلى الحج لأداء الفريضة، دون أن تأخذَه محرمًا وأخذت أحدَ أقاربِها محرمًا لها، فكتب إليها شعرًا يبثُ فيه أشواقَهُ لها وهي بمكَّةَ، قال فيه:

نحن في غايةِ السرورِ ولكنْ ▪▪▫ ليس إلاَّ بكم يتمُّ السرورُ
عيب ما نحن فيه يا أهلَ وُدِّي ▪▪▫ إنكم غُيَّبٌ ونحن حُضورُ
فأجِدُّوا السيرَ إنْ قدرتُمْ ▪▪▫ أن تطيروا مع الرياحِ فطيروا

ولم نقصد بهذا القول من الشعر إلا أن نبيِّنَ كيف استحوذتْ الخيزران على قلب المهدي.

وقد اشتكى المهديُّ أميرُ المؤمنين من سطوةِ زوجه، وشخصيتها القويَّة، وذلك ما ذكره المؤرخون ومنهم الواقدي[1].

الذي قال: دخلتُ على المهدي يومًا فحدثتُهُ بأحاديثَ فكتبها عني ثم قامَ فدخل على بيوتِ نسائِه ثم خرج وهو ممتلئٌ غيظًا، فقلت: مالك يا أميرَ المؤمنين؟

فقال: دخلتُ على الخيزرانِ فقامت إليَّ ومزَّقت ثوبي وقالت: ما رأيتُ منك خيرًا، وإني والله يا واقدي إنما اشتريتها من نخَّاسٍ (بائع الجواري)، وقد نالت عندي ما نالت، وقد بايعت لولديها بأمرة المؤمنين من بعدي.

فقال الواقدي: يا أميرَ المؤمنين إنَّ رسول الله ﷺ **قال: «إنهنَّ يغلبن الكرامَ ويغلبهن اللئامُ»، وقال: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهله»، «وقد خلقت من ضلع أعوج إنْ قوَّمته كسرته»**، وحدثته في هذا الباب بكلام يحضرني، فأمر لي بألفي دينار فلما وافيت المنزل إذا رسول الخيزران قد لحقني بألفي دينار، ومعه أثواب أخر للأمير وبعثت تشكرني وتُثني عليَّ معروفًا.

ويتبيَّن من ذلك أنَّ الخيزرانَ كانت نافذةً إلى قلب زوجها تستطيع أن تسوقَ دلال الأنثى عليه إلى حدِّ إغاظته وتمزيق ثوبه، كما

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» (مجلد ٥ جـ١٠، ص١٥٧، ١٥٨).

أنَّ مقولةَ الواقدي بأنَّ الخيزرانَ أرسلت له مالاً شاكرةً له حديثه الذي دعا إلى تقويم المرأة لا كسرها، وقد ضمت للمال والشكرِ أثوابًا أخرى للمهدي الأمير والزوج بدل التي مزقتها قبل ذلك لتقول هكذا أكون معه وهو الأمير ولكنَّ الحبيبةَ إلى القلبِ والزوجةَ لا يُردُّ لها أمرٌ، وقد عزَّى المهدي نفسه بشكواه للواقدي، فإذا كانت هذه هي شخصيةُ الخيزران فمن يكون المهديُّ الزوجُ؟ والمهديُّ هو الخليفةُ العبَّاسيُّ، الذي كان مُحبًّا لزوجه الخيزران وكان بليغًا فصيحًا جميلاً، قال وهو يخطب في الناس يومًا:

«أيها الناس أسروا مثلما تعلنون من طاعتنا تَهْنِكُمُ العافيةُ، وتحمدوا العاقبةَ، واخفضوا جناحَ الطاعةِ لمن ينشرُ مَعْدلَتَهُ فيكم، ويطوى ثوب العهد عنكم، وأهال عليكم السلامة ولين المعيشةِ من حيث أراه الله، مقدمًا ذلك على فعل من تقدمه، والله لأعفينَّ عمري من عقوبتكم، ولأحملن نفسي على الإحسان إليكم».

وكان المهدي كريمًا سخيًا ذكيًا ومن ذكائه وفراسته أنَّه دخل عليه رجلٌ يومًا ومعه نعل، **فقال**: هذه نعلُ رسول الله ﷺ قد أهديتها لك. **فقال**: هاتها، فناولها إياه، فقبَّلها ووضعها على عينه وأمر له بعشرة آلاف درهم، فلما انصرف الرَّجلُ، **قال المهدي**: والله إني لأعلم أنَّ رسول الله ﷺ لم ير هذه النعلَ، فضلاً عن أن ينتعلها،

ولكن لو رددتُه لذهب يقولُ للنَّاس: أهديتُ إليه نعل رسول الله ﷺ فردَّها عليَّ، فتصدَّقه الناسُ، لأنَّ العامَّةَ تميل إلى أمثالِها، ومن شأنهم نصرُ الضعيفِ على القوي، وإن كان ظالمًا فاشترينا لسانَه بعشرة آلاف درهم ورأينا هذا أرجح وأصلح[1].

مع الأبناء:

تعاملت الخيزرانُ مع ولديها موسى الهادي وهاون الرشيد معاملةَ الأُمِّ الحريصةِ على أن يكونَ الأبناء في أحسنِ هيئةٍ وأحكمِ رأيٍ وأنبل خلقٍ وسلوكٍ، هكذا تمنت الخيزران لولديها، وهكذا تتمنى كلُّ أُمٍّ لأبنائها.

فإذا تحدثنا عن أكبرهما موسى ولقبه الهادي نجد أن الهاديَ وُلِدَ بالري وهي مدينةٌ بشمالِ العراق قريبةٌ من حدودِ بلاد فارس، ولد سنة سبع وأربعين ومائة وتولَّى الخلافةَ سنة تسع وستين عندما توفي والده، وكان عمرهُ اثنتين وعشرين سنةً، ولم يل الخلافة قبله أحد في مثل هذ السن، وظل خليفةً سنةً وأشهرًا، وكان يُسمي موسى الأطبق: لأنَّ شفته العليا كانت تتقلَّص، فكلَّف أبوه المهدي خادمًا من خدمه وهو صغير أنه كلما رآه مفتوحَ الفم، أن يقول: موسى أطبق فيطبق ويضم شفتيه فاشتهر عنه ذلك.

---

(١) «بداية والنهاية» (مجلد ٥ جـ١٠، ص١٥٧).

ولم يذكر له مآثر غير الفصاحة والأدب، فكان فصيحًا، قادرًا على الكلام أديبًا، تعلوه هيبة[1].

أما الابن الثاني فهو هارون الرشيد وقد تجمَّعتْ له كلُّ صفاتِ النجابة والخلافةِ والإمارةِ غير أخيه الهادي وهذا في نظر أمه الخيزران أيضًا.

وقد وصفه المؤرخون فقالوا: «كان الرشيدُ أنبلَ الخلفاءِ، وأحشمَ الملوكِ، ذا حجٍّ وجهادٍ، وغزوٍ، وشجاعةٍ ورأيٍ. وكان أبيضَ طويلاً، وسيمًا، ذا فصاحةٍ وعلمٍ وبصرٍ بأعباءِ الخلافة، وكان يُصلِّي كلَّ يومٍ مئةَ ركعةٍ إلى أن مات، وكان يتصدَّقُ ويُحبُّ العلماءَ ويُعظِّمُ حُرماتِ الدينِ، ويُبغض الجدالَ في الكلام ويَبكي على نفسِهِ ولهوِهِ وذنوبِهِ، لاسيما إذا أُوعِظَ».

تولَّى الهادي الخلافةَ وكان فيه بعضُ القصورِ، فبدأت الخيزرانُ تقربَ الناسَ من قصرها ومن مجلسها حتى تُكملَ قصورَ وتقصيرَ ابنها الذي تعرفه قبل أن يعرفه الناسُ، ولكن الهادي رفضَ موقفَ أُمِّه، فبعد أن صبر عليها قليلاً اتخذ منها موقفًا حازمًا، وتبيَّنَ ذلك حينما ـ كلَّمتُه في أمرٍ لم يجدْ إلى إجابتِهِ سبيلاً، فتحلَّل وتملَّل وساق الحججَ، كي لا يستجيبَ إلي طلبِها ـ وكان لرجلٍ اسمه عبد الله بن مالك.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (جـ ٨، ص٤٤١).

ولما قالت له: لابدَّ من إجابتي إليه، **فأجابها بوضوح وتحدٍّ:** لا أفعل.

فقالت الخيزران: فإنني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك ووعدتُه بقضائِها.

فغضب الهادي وراح يهدِّدُ وقد ارعد وأزبدَ قائلاً: ويل لابن مالك، قد علمت أنَّه صاحبُها، والله لا أقضيها لك.

فلما سمعت الخيزران منه ذلك غضبت وقالت: إذًا والله لا أسألك حاجةً بعدها أبدًا.

فقال الهادي على الفور: لا أبالي إذًا والله يا أُماه..!!

غضبت الخيزران على ابنها أشدَّ الغضبِ، ونظرت إليه نظرةَ انهزامِ الأُم من عصيانِ ابنها، وخرجت وهي على هذه الحال، فنادها في استهجان وتهديد، **وقال لها:** قفي مكانَك فاسمعي كلامي.

فلما وقفت قال لها: والله، لئن بلغني أنَّه وقف ببابك أحدٌ من قوَّادي، وخاصتي، لأضربن عنقه، ولأقبضَنَّ ماله، فمن شاء فليلزم ما أقول.

ثم استطرد يقول لها: أما لك مغزلٌ يشغلُك؟! أو مصحف يُذكِّرُك؟ أو بيت يصونُك؟

ثم رفع رأسه وأصبعه محذرًا فقال: إيَّاك! وإيَّاك، ثم إيَّاك! لا تفتحي بابك لمسلمٍ ولا ذِمّيٍّ.

فـانصرفت الخـيزران غـاضـبةً من أمـام ابنهـا ولم تنطق بشيء بعدها، ولم يسـمع أنها تدخَّلت في أمـر، بل لم تنطق عنده بحلوة ولا مرَّةٍ بعدها[1].

ثم أراد الهـادي أن يُنْهِيَ دَوْرَ أُمِّه الخـيـزرانِ من منبعِـهِ فجـمع أصحابَهُ، **وقال**: أيَّما خير أنا أم أنتم، وأمي أم أمهاتُكم؟

قالوا: بل أنت وأمك خير.

قال: فأيكم يحب أن يتحدث الرجالُ بخبـر أُمِّه، فيقول: فعلت أُمُّ فلان، وصنعتْ؟

قالوا: لا نحبُّ ذلك.

قال: فما بالكم تأبون أُميِّ، فتتحدثون بحديثها؟

فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها.

غضـبت الأُمُّ على ابنهـا الهادي، فلم يوفقْ في خـلافتِـهِ، ولم يحبَّهُ الناسُ، وحاول خلعَ أخيه هارون من ولاية عهدِهِ ـ ووضع ابنه جعـفر مكانَهَ، فلم يعتـرضْه هارون، ولكنه خـاب في خططه ومات مُغضبًا لأُمِّه.

واستـعاضت الخـيزرانُ بعـد موته بهـارون ـ الذي كان يجلُّـها ويحتـرمُهـا ويوقِّرُها وقد أَحَسَّ الناسُ بمدي توقـير واحـترام هارون

---

(١) «نساء الخلفاء» لابن الساعي.

الرشيد لأُمِّه الخيزران واحترام رغبتها وإرادتها والسعي للفوز برضاها، فوفَّقه الله في خلافته وأحبَّه الناس لحبِّه لأُمِّه، واتسعت دولتُه فملكت معظم بلاد العالم.

وكان الرشيدُ إذا رحل إلى مكانٍ لم تُطق الخيزرانُ فراقَهُ، فعندما سألت جاريتها ريطة عن ابنها هارون.

فقالت: ما فعل ابني هارون؟

فقالت ريطة: حلف ألاَّ يصلِّيَ الظهرَ إلا ببغدادَ.

قالت الخيزران: هاتوا الرحائل (الخيل والإبل) فما جلوسي هنا، وقد رحل ابني هارون، وركبت فلحقته ببغداد.

وظل هارون على حبِّه لأمِّه، ابنًا وفيًّا، مطيعًا.

وظلت الخيزرانُ أُمًّا ناصحةً لابنها هارون، حكيمةَ الرأي، فصيحةَ اللسان، راعيةً لمصلحة ابنها الخليفة، وفيةً لرعيته، فأحبَّها الناس وأجلُّوها وقدَّروا ابنها وازدادوا حبًّا له وجعلوه وأُمَّه قدوةً ومثلاً يُحتذى.